

الفصل الثامن

الأستاذون طبقات الرواة

١- طبقة الصحابة

أ- مصطلح الصحابي :

لا شك أن كلمة الصحاب إذا أطلقت على متبعي الإسلام أيام البعثة الشريفة تبين أن ثمة تفاعلاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يطلبهم ، وهم يطلبونه ، هكذا الصحبة التي أطلقها عليه الصلاة والسلام تشريفاً لهؤلاء المباركين ، ولم يطلق عليهم اسم الأتباع أو المريدين ، وهذا اقتداء بنهج القرآن الكريم الذي جعل لهم شرف المعية ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

تكثرت التعريفات لتحديد مفهوم الصحبة في كتب علوم الحديث ، وتعدد المعايير ، وتلاقى وتتباعد ، لكن الذي يتضح من الأصل اللغوي ، هو المعيار المكاني ، إذ يكون الصحابي المسلم الذي لازم النبي عليه الصلاة والسلام في المكان .

أما المعيار الزمني فهو داخل ضمن المعيار المكاني ، وكل مكان لا يُتصور من غير تدان أصلاً ، وهكذا يكون الصحابي معاصراً له في الزمان ، ملازماً له في المكان .

نبدأ بتعريف البخاري للصحابي في صحيحه أول كتاب فضائل

الصحابة ، إذ قال : « من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من الصحابة » .

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه قال : « أصحاب رسول الله ﷺ كل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه »^(١) .

ويعود القاضي الباقلاني (- ٤٠٣هـ) إلى الأصل اللغوي ولا يكتفي به ، بل ينزع إلى العرف الاجتماعي قال : « لا خلاف بين أهل اللغة أن الصحابي مشتق من الصحبة ، جارٍ على كل من صحبه غيره قليلاً أو كثيراً ، ويقال : صحبه شهراً ويوماً وساعة ، وهذا يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة ، هذا هو الأصل ، ومع هذا فقد تقرّر للأمة عُرف في أنهم لا يستعملونه إلا فيمن كثرت صحبته ، واتصل لقاءه ، ولا يجري ذلك على من لقي المرء ساعة ومشى معه خُطى ، وسمع منه حديثاً ، فوجب ألا يجري في الاستعمال إلا على من هذا حاله »^(٢) .

ويركّز على الرؤية كما في قولهم الذي نقله الحافظ ابن كثير قال : وأطلق جماعة أن من رأى النبي ﷺ فهو صحابي ، وهو محمول على من بلغ سن التمييز ، إذ من لم يميز لا تصح نسبة الرؤية إليه ، نعم يصدق أن النبي ﷺ رآه ، فيكون صحابياً من هذه الحيشية ، ومن حيث الرؤية يكون تابعياً^(٣) وبذلك اختار ابن حجر فيما بعد شرط بلوغ الذي يرى .

ويحدد الإمام ابن حزم شرط المجالسة والكلام والرؤية والإسلام

(١) إرشاد طلاب الحقائق ، ص/ ١٩٤ وأسد الغابة : ١٣/١ .

(٢) إرشاد طلاب الحقائق ، ص/ ١٩٥ .

(٣) الباعث الحثيث ، ص/ ١٨١ .

يقول : « أما الصحابة رضي الله عنهم فهو كل من جالس النبي ﷺ ولو ساعة ، وسمع منه ولو كلمة وما فوقها ، أو شاهد منه عليه السلام أمراً يعييه ، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نفاقهم ، واشتهر حتى ماتوا على ذلك ، ولا مثل من نفاه عليه السلام باستحقاق مثل كهيث المخنث ، ومن جرى مجراه ، فمن كان كما وصفنا أولاً فهو صاحب ، وكلهم عدل إمام فاضل رضي ، فرض علينا توقيهم وتعظيمهم ، وأن نستغفر لهم ونحبهم »^(١) .

هذا وإذا نظرنا بمنظور المحدثين ، إذ يحتمل أن ينفرد هذا الصحابي في هذه الساعة فينقل أحاديث ويصور أحوالاً نبوية ، ولكن هذا التفرد ليس هو سبب عدم تدوين الحديث كما ذهب الدكتور أبو شهبه .

يقول : « ولا يمكن لأحد مهما أوتي من السلطان أن يجمع جميع الصحابة (وهم ألوف) ويأخذ منهم ما حملوه ويدونه ، فلما رأوا أنهم غير قادرين على هذا اقنعوا عن التدوين ، وأحرقوا ما دونوا ، مخافة أن يعتقد من بعدهم أنهم بذلوا كل الجهد وأمكنهم استيعاب كل السنة - كما فعلوا في القرآن وجمعه في هذا الكتاب المدون ويعتقد أن ما عدا ما فيه - ما يتحدث به الرواة ليس منها أو لا يعتقد ذلك لكنه يقدم ما دونه على ما يروى مشافهة عند التعارض وقد يكون في الواقع المروي مشافهة ناسخاً للمدون ، وفي ذلك كله ما فيه من الخطر وضياح جزء كبير من الأحكام الشرعية »^(٢)

وثمة فرق جلي بين الجمع والتدوين الذي تأخر إلى ما بعد المئة الهجرية ، ولقد بينا الأسباب التي دعت الصحابة الخلفاء منهم حصراً إلى

(١) الإحكام لابن حزم : ٨٦٦/٥ ، وراجع الإصابات (٩٠٢٢) .

(٢) دفاع عن السنة ، ص/٤٧٢-٤٧٣ ، وراجع كتابي : الصحابة حراس الحديث .

عدم التدوين كما فصلنا هذا في كتاب « الصحابة حراس الحديث » ،
فعدم إمكان الاستقصاء لمرويات الصحابة لم يكن مطلوباً للتدوين

وعند المحدثين لا يذكر الزمن بل يركزون على أهمية الرواية منهم
أبو المظفر السمعاني المروزي ، قال : « أصحاب الحديث يطلقون اسم
الصحابة على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة ، ويتوسعون حتى يعدون
من رآه رؤية من الصحابة ، وهذا لشرف منزلة النبي ﷺ ، أعطوا كل من
رآه حكم الصحبة » .

وقد روي أن التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه كان
متشدداً في تعريف الصحابي مما يقلص الأعداد فقال : « من طالت
مجالسته على طريق التتبع ، والأخذ عنه ، قاله بعض الأصوليين ،
وقيل : من صحبه سنة ، أو غزى معه غزوة ، أو غزوتين » .

ويتشدد الأصوليون لأن كلام الصحابي عندهم بمنزلة الحديث
المرفوع وكلامه غير قائم على الاجتهاد ، ولا شك أنهم قعدوا القواعد
وفق من طالت صحبته .

وقد ضعّف العلماء هذا الحديث ومنهم الحافظ العراقي الذي ضعّف
هذه المقولة ؛ لأن الإسناد يشتمل على محمد بن عمر الواقدي (-
٢٥٧هـ) وهو ضعيف ، كما أن هذا القول إن صح فهو ضعيف في ذاته
لأنه يخرج كثيراً من الصحابة من شرف الصحبة منهم : جرير بن عبد الله
ووائل بن حجر ، ولعله من قول بعض الأصوليين (١) .

والقول الجامع الذي يلتف حوله أكثر الباحثين قول ابن حجر

(١) التقييد والإيضاح ، ص/٢٩٧ .

العسقلاني الذي نستطيع أن نطلق عليه قول الجمهور : « أصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ ، مؤمناً به ، ومات على الإسلام ، فدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغزو ، ومن رآه رؤية ولم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى »^(١) .

كل هؤلاء صحابة ، ولكن ثمة تفاضل بين مراتبهم ، فالذي جالسه وغزا معه وشهد الغزوات ترجح كفته على من لم يتشرف إلا بالرؤية . كما يرجح الكبار منهم على الأطفال الذين لم يسمعه ونقلوا كلامه عن كبار الصحابة ، وإن كانوا قد ميزوه .

أما الصغار الذين لم يميزوه مثل عبد الله بن الحارث بن نوفل أمه هند بنت أبي سفيان ، وقد ولد قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بستين ، وكذلك عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ومحمد بن أبي بكر الذي ولد في حجة الوداع ، أي قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بثلاثة أشهر . فمثل هؤلاء لا تنسب الرؤية إليهم ، فهم يُرون ولا يرون ، وإذا كان قد رآهم عليه الصلاة والسلام ، فلا يعدون صحابة من هذه الحثية لذلك نخالف ما ذهب إليه بعض المعاصرين^(٢) . لأن الصحبة لا تعني مجرد الوجود أيام البعثة النبوية .

بل الرؤية وحدها لا تساوي شيئاً في ميزان أنس رضي الله عنه ، فقد سئل : هل بقي أحد من الصحابة غيرك ؟ فقال : بقي ناس من الأعراب ، فأما صحبه فلا^(٣) .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : ٥٤/١ .

(٢) تبسيط علوم الحديث ، محمد نجيب ، ص/١٥٧ .

(٣) علوم الحديث ، ابن الصلاح ، ص/١١٩ .

وقد قال عليه الصلاة والسلام في فضل الصحابة والتابعين : « طوبى لمن رآني وطوبى لمن رأى من رآني من رآني » وليس يفهم أنه يكتفي بمجرد الرؤية كما يعتبر الدكتور أبو شهبه^(١) فلا شك أنه يقصد المسلمين المخلصين أي فيما بعد البعثة ، فالرؤية وما يعرضها .

ويشترط أن تكون الرؤية بعد البعثة ، فيخرج منهم زيد بن عمرو بن نفيل^(٢) الذي رآه قبل البعثة وهو أحد الموحدين ، ومات قبل البعثة ، وفي سنن النسائي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال عنه : « إنه يبعث أمة وحده » ، هذا يعني أنه من أهل الفترة .

والدليل على هذا أن يذكر المترجمون من أولاده من ولد بعد البعثة ، فيذكرون إبراهيم دون القاسم والطاهر وعبد الله وقد ماتوا قبل البعثة « كما يخرج النجاشي الذي آمن بغير الرؤية .

فالشرط الذي اشترطه ابن حجر وهو الموت على دين الإسلام يدخل في هذا التعريف من لقيه مؤمناً به ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم عاد إلى الإسلام ، وهذه حال الأشعث بن قيس الذي ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام أيام خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وثمة اتفاق بين أهل الحديث على عد أمثاله صحابة .

ويذهب الدكتور أبو شهبه رحمه الله وغيره من الباحثين إلى دخول الجن في شرف الصحبة ، ويستندون في هذا إلى مقولة الإمام ابن حزم في كتابه المحلى ، وإلى علم الدين السخاوي .

قال ابن حزم : « قد أعلمنا الله تعالى أن نفرأ من الجن آمنوا وسمعوا القرآن من النبي ﷺ ، فيهم صحابة » .

(١) الوسيط ، ص/٥٤١ .

(٢) الإصابة : ٣٠/١ .

وقال الإمام السخاوي : « ويدخل فيهم - أي الصحابة - من رآه وآمن به من الجن ، لأنه ﷺ بعث إليهم قطعاً ، وهم مكلفون فيهم العصاة والطائعون »^(١) .

وكانما الحكم بالصحبة يتكئ على التكليف ، ولكن هذا التكليف لم يتضح في الجن ، لا نعرف صلاتهم وصيامهم ، كما لم يؤمروا بالجهاد والفتوحات ، ولا حفظ القرآن ، ولعلمهم سمعوه مرة واحدة جاء في القرآن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] .

ولا نظن لائقاً بالبحث العلمي وتشريف الدعوة الإسلامية والامتثال بمنهج الصحابة وسلوكهم أن نعدّ معهم الجن ، ومن الترف الذهني أن يُقال بعد إذن من عصرنا : « ويدخل في التعريف كل مكلف من الجن والإنس ، أما الملائكة فلا يدخلون »^(٢) .

ومن هذا الترف أيضاً التذكير بأن شرط رؤيته عليه الصلاة والسلام مشروط بمكان وهو عالم الشهادة ، إذ يقولون بهذا حتى لا تطلق الصحبة على الأنبياء الذين التقى بهم عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج . ويخرج من التعريف من أسلم ثم ارتد فمات على الكفر ، مثل جبلة بن الأيهم الذي ارتد أيام عمر رضي الله عنه .

ويقولون : يخرج من التعريف وشرف الصحبة بحيرا الراهب المذكور في كتب السيرة ، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام قد رآه في طفولته ، وما دامت الرؤية قبل البعثة الشريفة فلا صحبة لبحيرا .

ويبدو لنا راجحاً أن هذا الكلام مبني على خطأ فادح أصلاً ، لأن

(١) تبسيط علوم الحديث ، محمد نجيب ، ص/١٥٧ .

(٢) الوسيط ، د . أبو شهبه ، ص/٤٩١ ، وتبسيط علوم الحديث ، ص/١٥٨ .

الروايات التي تذكر بحيرا ضعيفة جداً ، فكأن هذا الرجل أسطورة تشبه ما ورد عن عيسى عليه السلام ولقائه بيوحنا المعمدان كما جاء في الإنجيل ، والدليل على ضعف الرواية أنه لم يرد في أي نص اسم هذا الراهب .

ونقرّر أخيراً أن ما نسب إلى سعيد بن المسيب وما ورد عند الأصوليين فيه تشدد واضح ، لأننا نُخرج كثيراً من الصحابة إذا اشترطنا الغزو والرواية والسفر ، وأما المجالسة سنة ففيها بُعد نفسي في قلب الأمزجة مع الطقس ، وكذلك يبين السفر كثيراً من جنايا النفس والسلوك العقلاني والنفساني ، لكن هذا غير معتبر للصحبة .

واشترط الأصوليين للصحبة طول الاجتماع وكثرة الرواية معقول للتفاضل بين الصحابة وليس لشرط الصحبة ، فقد ذكر بعضهم أحد شقي الشرط ، إذ يكفي طول المجالسة أو الرواية . . وقال غيرهم : يشترط الغزو معه^(١) ، أو مضي سنة على الاجتماع ، وقد قال أصحاب هذا الرأي : لأن لصحبة النبي عليه الصلاة والسلام شرفاً عظيماً لا يُنال إلا باجتماع طويل أي اجتماع متكرر ، يظهر فيه الخلق المطبوع عليه الشخص ، كالغزو المشتمل على السفر الذي هو قطعة من العذاب ، والسنة المشتملة على الفصول الأربعة التي يختلف فيها المزاج كما أسلفنا .

ولكن كتب التراجم تسير وفق ما ذكره ابن حجر العسقلاني من دلالة على التوسع والتساهل والانفتاح على شرف الصحبة ، والدليل على هذا كثرة من تُرجم لهم من الصحابة ، سواء رووا أحاديث أو لم يرووا ،

(١) راجع الموسوعة الفقهية : ٣١٣/٢٦ .

وبغزو وبغير غزو ، وأحياناً تحصل الصحبة بلقاء وغيره ، محتكمين في ذلك إلى معيار الزمان دون المكان ، فالمكان غير مهم إذ المناق صحبه وجالسه من غير إيمان .

وكما نفينا معيار الزمان وحده وانتهينا إلى عدم إطلاق الصحبة على كل من عاش فترة البعثة ، فكذلك لا يعد المعيار المكاني مطلقاً ، إذ ليس كل من جالسه صحابياً ، فقد أحاط به بعض الكفرة المنافقين الذين كانوا يتربصون بالدولة الإسلامية الفتية ، فقد جالسه الكفرة في مكة والمنافقون في المدينة .

ب - طرق معرفة الصحابة :

قال الإمام النووي : « يعرف كونه صحابياً بالتواتر ، وبالاستفاضة ، أو بقول بعض الصحابة : إنه صحابي ، أو بقوله عن نفسه : إنه صحابي ، بعد ثبوت عدالته »^(١) ، وسنفصل هذه الطرق :

١- التواتر :

أي يعتمد على معرفتهم روايات متواترة ، كالتصديق بصحبة الخلفاء الراشدين ، وصحبة المبشرين بالجنة ، وصحبة كبار الصحابة مثل أبي أيوب وأنس وزيد رضي الله عنهم .

وعلى هذا يعد من أنكر صحبة عمر رضي الله عنه كبير الإثم مع تعيين إصابته بالهلوسة ، أما من يشك في صحبة أبي بكر رضي الله عنه ، فإنه يكفر لشكّه في آية قرآنية قال عز وجل : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] فهو كمن شك بالقرآن فيكفر .

(١) إرشاد طلاب الحقائق ، ص/ ١٩٥ .

٢- الشهرة :

والشهرة أقل من التواتر من حيث عدد الرواة كما يرى العلماء ، مثل إثبات صحبة عكاشة بن محصن وضمام بن ثعلبة ، ومثل هذين وردت أسماؤهم في الحديث لأنهم من الصحابة الرواة ، وهذه معرفة شبه متواترة في رأينا ، ويبقى القسم الأول للجلال فحسب .

٣- الشهادة :

وذلك أن يشهد صحابي معروف لإنسان ما بأنه صحابي ، مثل شهادة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لحممة بن أبي حممة الدوسي^(١) رضي الله عنه « الذي مات بأصبهان مبطوناً ، فشهد له أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ حكم له بالشهادة مع العلم بأن أشعر ودوساً قبيلتان يمينتان فهو يشهد لابن بلده ، ذكر هذه القصة أكثر من مصدر وهو أمر نادر على كل حال ، إذ لم أجد غير هذه الشهادة .

٤- الإقرار :

نقل عن الإمام الآمدي أنه قال في كتابه الإحكام في أصول الأحكام : « فلو قال من عاصره ؛ أنا صحابي مع إسلامه وعدالته فالظاهر صدقه ، وحكى ابن الحاجب احتمالين من غير ترجيح ، قال : ويحتمل أن لا يصدق لكونه متهماً بدعوى رتبة يثبتها لنفسه »^(٢) .

وهذا يعني أن تميز الصحبة بإقرار الشخص ذاته ، ولم أجد مثلاً على هذه الطريقة ، وكأنه قياس لم يقع ، وليس سماعاً ، مثل الأوزان القياسية

(١) ذكر أخبار أصبهان ، أبو نعيم : ٧١/١ ، ومسند الطيالسي ، ح (٥٠٥) والمعجم الكبير للطبراني ، ح (٣٦١٠٤) ، والإمام أحمد : (٤٠٨/٤) وتدريب الراوي ، (ص / ٦٧٢) .

(٢) النكت ، للعراقي ، ص / ٢٦١ .

التي لم تستعمل في اللغة ، وينتج عنها أن يقول : أنا عدل ، والعدالة كما نعرف حكم خارجي ، ليس كأنا جائع ، فلا يعدل الإنسان ذاته ، إنما يجب أن يعدله الآخرون .

وإذا كان الشخص المعدل صحابياً فإن المعدلين هم من طبقة التابعين . وهذا لا يصح فلا يعدل تابعي صحابياً ، فالصحابه هم الأعدل والأجل .

وقد اشترطوا لقبول إقرار الرجل بأنه صحابي شرطين :

الأول : أن يكون ثابت العدالة ، وهذا أمر راجح ، لأنه في زمن التابعين الأتقياء .

الثاني : أن يكون في المدة التي حددها الحديث النبوي ، إذ قال عليه الصلاة والسلام كما في صحيح البخاري (ح ١١٦) ومسلم ، ح (٢٥٣٧) قال : « رأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قال :

وقد أثبت جابر رضي الله عنه كما في صحيح مسلم أن هذا الكلام قيل قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بشهر أو أكثر ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مئة سنة وهي حية يومئذ » .

وقد جهل بعض المستشرقين أو تجاهلوا وتعاموا عن الحقيقة الناصعة ، وتبعهم بعض من الكتاب المعاصرين في فهم الحديث ، فكان

سبباً لهم لإنكاره ، قال الدكتور أبو شهبه : « زعموا أن الحديث يدل على قيام الساعة ، والساعة لم تقم بعد مئة سنة من مقالته ، وقالوا : إن الحديث غير صحيح لمخالفته للواقع والمشاهدة ! ولو أنهم عقلوا وتأملوا لعلموا أن المراد انخرام ذلك القرن أي انتهاء أهله كما بيته رواية البخاري ، بل جاء في روايته أيضاً أن بعض الناس وهموا وظنوا أن المراد قيام الساعة ثم تبين لهم أن المراد انتهاء الجيل »^(١) .

فالصحابة يسألون عن موعد القيامة وهو يرشدهم إلى الخوف من الانقلاب إلى الله عز وجل بالموت وحياة البرزخ ، فهذا في رأينا ما يسمى في البلاغة : أسلوب الحكيم ، أن يُسأل السائل عن شيء فيجيب بما هو أهم ، ولا نأخذ برأي الشيخ أبي شهبه في إطلاق الساعة على الأمم والأجيال ، لأن قرائن الحديث لا تدل ، ويبقى الحديث معجزاً بأخباره المستقبلية .

وكان آخر الصحابة موتاً أبو الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه وقد توفي سنة (١١٠ هـ) وهي آخريه مطلقة ، فثمة آخريات مقيدة بالمكان ، مثل آخرهم موتاً في الشام وآخرهم موتاً في مكة ، وآخرهم موتاً من النساء . وقد ورد في صحيح مسلم ما يشير إلى تفرد آخ عمره قال أبو الطفيل : « رأيت رسول الله ﷺ وما على وجه الأرض رجل رآه غيري » وهذا يعني أنه عاش مئة سنة بعد قول الحديث النبوي ، وهو من المعمرين ، ولهذا الشرط الزمني كُذّب رتن الهندي الذي ادعى الصحبة بعد المئة السادسة الهجرية . ولعله مخبول وهو المرجح الذي لم ينقله الباحثون .

وقد ذكرنا أن العلماء اتفقوا على تكفير من ينكر صحبة أبي بكر

(١) الوسيط ، ص/٤٩٨ .

رضي الله عنه لأنه يكذب ما جاء في القرآن من إثبات لصحبته ، وهذا شيء مفترض إذ لم ينكر أحد من المسلمين أنه صحابي في الحق ، ولا من الكافرين أنه صاحب في الباطل ، فمسألة وجوده لا تنكر مهما كانت عقيدة الناكر ، لكن اختلفوا في تكفير من ينكر نميراً غلام أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك مثل سائر الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وخادمه أنس وربيبة زيد بن حارثة وأمين سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنهم .

فذهب الأئمة الشافعية والحنفية والمالكية إلى القول : لا يكفر بهذا الإنكار وهذا مفهوم مذهب المالكية ومقتضى قول الحنفية .

وتشدد الفقهاء الحنابلة فقالوا : يكفر هذا المنكر لتكذيب النبي عليه الصلاة والسلام ولأن هذه الصحبة بديهية يعرفها العام والخاص وانعقد الإجماع على ذلك فنافي صحبة أحدهم أو كلهم مكذب للنبي عليه الصلاة والسلام .

ويبدو لنا أنه مكذب لنص القرآن الذي مدح الصحابة كلهم كما سنسجل فيما بعد ، وترجح رأي الحنابلة ؛ لأن إنكار الراشدين من غير أبي بكر هو إنكار للسنة المتواترة المعنوية في تقعيد العبادات ، وهو إبطال لكثير من التفسير الذي جاءنا من الصحابة .

وإذا أنكرنا صحبة من كان موجوداً في الزمان والمكان فإننا سوف نتصور أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الداعية الوحيد وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو المدعو الوحيد في ثلاث وعشرين سنة ؛ وهو تصور باطل ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يخاطب رجلاً واحداً في حياته الشريفة بل خاطب العالم أجمع ، والذي ينكر صحبتهم مع الإقرار بوجودهم يكون قد ألصق بهم تهمة النفاق التي تُرد عليه .

ج - الصحابة معرفة فعالة :

لا تقتصر على مرمى المحدثين في معرفة الصحابة للتفريق بين الحديث المرسل إذا تبين أن آخر رجل هو تابعي ، فهذه قضية اصطلاحية ضيقة بإزاء آفاق المعرفة العظيمة من خلال بلورة المنهج العقلي والسلوك النفسي لسعادة البشرية بعد الأنبياء .

الصحابة أشرف الأمم إطلاقاً على سبيل الزمان والمكان من بعد الأنبياء ، وهم مرآة سلوكنا ، نقيس بهم ، ونقبس منهم ، ونهتدي بهداهم ونستضيء بنبراس عرفانهم ووجدانهم ، ونقرّ بفضلهم الأعظم على الأمة الإسلامية .

فإذا تذكرنا على الأقل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي كان يسمي نفسه سُدس الإسلام ، لولا أمثاله لكننا تحت نير الاستعمار ، مستعبدين للقيصرة الروم والأكاسرة الفرس .

لقد حرّر الصحابة أمة العرب ، ثم حرّروا كثيراً من الأقوام من طغيان ولاتهم ، فتحوا بلادهم ، وفتحوا قلوبهم على الحق ، فهم قدوة علينا لنا ، وقدوة لكل إنسان سعى إلى إنسانية سامية ، لأن هؤلاء البررة مثل أعلى في ركب الإنسانية .

وعلى الدعاة اليوم ، وفي كل أرض أن يقفوا على إبراز النماذج البشرية الموقّعة ليقْتدي بها المدعوون ، وهذا أمر مقرور به ، إذ يتم التغيير بسير العظماء ، فعلى الدعاة أن يقفوا على هذه الظاهرة التاريخية الفذة ، ظاهرة الصحابة المباركين ، وقد اهتم كثير من الدعاة على التلفاز بهذا المنهج وعلى رأسهم الأستاذ عمرو خالد ، بنجاح منقطع النظر .

لقد خرّجت الدعوة الإسلامية في مبدئها جيلاً متفرداً راقياً في إنسانيته

وبطولاته حتى لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية ، إلا على سبيل الأفراد في أمتنا ، ولم يحدث أن تجمع مثل هذا العدد الضخم من النبلاء الأتقياء كما في فترة البعثة النبوية .

ولم يقتصر نجاحهم في سعادة الدارين الأولى والآخرة على وجود النبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم ، فقد استمروا على سلوكهم القويم الفريد بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، إذ تدبروا القرآن والسنة ، وهما نصان بين أيدينا ، يمكن من خلالهما النجاح في الأخلاق الفردية والجماعية وبناء الفرد والمجتمع ، والانتصار على النفس العدو الداخلي ، والانتصار على العدو الخارجي كما رزقوا هذا رضي الله عنهم .

وكان ثمة أسباب لنجاحهم العجيب ، منها أن القرآن الكريم كان نبعمهم الثرّ لمعارفهم وأخلاقهم ، مما خلق جيلاً خالص القلب ، لقد وقاهم المولى من مرض الفلسفات القديمة اليونانية والرومانية ومن الديانات السابقة وخزعبلاتها .

والمشهود به أن اختلاط القرآن بينايع الفلسفة واللاهوت والإسرائيليات ورواسب الحضارات البائدة ، أدى كل هذا إلى نبع مشوب رسم سائر الأجيال القادمة بعد الصحابة .

ولكن لا يعني هذا مطلقاً أن نستبعد كل ثقافة اليوم ، فلا نقرأ إلا القرآن كما يفعل كثير من البسطاء ، فهذا السلوك المعوج لا يقرّه القرآن ذاته ، فالأسلم أن نستضيء بحقائق القرآن في قراءة الكون المعمور وسائر المسطور وفق رقابة القرآن ، وليس لنا أفهام الصحابة ولا يقينهم وليس لنا مرحلتهم التاريخية .

وما كان هؤلاء الأبرار يقرؤون بقصد الثقافة والاطلاع كشأن الغربيين

وأتباعهم أو مجرد الحفظ كما عند بعض الناس ، ولا بقصد التدقيق والمتعة الفنية ، بل كان الصحابي يتلقى الأوامر والزواجر القرآنية . فيترجمها إلى تطبيق عملي مباشر جامعاً بين عمق اليقين والإذعان السريع .

ولذلك ما كان الصحابي يُكثر من الحفظ ، بل كان يكتفي بحفظ آيات قليلة خشية أن تتراكم عليه التكاليف والواجبات . فالقراءة مسؤولية في العمل ، ومجال للمعرفة ، والقرآن يمنع كنوزه العظيمة لمن يقبل عليه بروح المعرفة الناشئة للعمل .

وثمة سبب يتجسد في انخلاعهم من الجاهلية انخلاعاً تاماً ، فحصلت في ذواتهم تخلية ثم تحلية ، فبقي لديهم منهج واحد ، لإنتاج مشوه ، وينطبق هذا على المدعويين الذين ينبغي أن يتجردوا من حضانة الفكر الكافر والتكوين الثقافي الجاهلي الذي يهجم هجوماً هذه الأيام ، وهكذا لا يتكاسلون ولا يتناقضون مع ذواتهم ، فالكثير مما يعد ثقافة إسلامية اليوم هو من نتاج غير المسلمين ، هكذا نجح الصحابة في الدارين الأولى والآخرة .

والصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين هم السفراء المبلغون عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، اختارهم هو مبلغين عنه ، شارحين سنته ، وكلفهم ذلك . فكانوا نعم المبلغين ونعم المعلمين ، وذلك لما في قلوبهم ووجوههم من نورانية .

وارتقت أخلاقهم بتشرفهم بالنهج المحمدي ، حتى كان الناس يشبهونهم بالأنبياء عليهم السلام ، ووجدوا فيهم أوصاف الحواريين .

ولذلك لحظ المؤرخون أنه كلما كان إسلام قوم قريباً من عصر

الصحابة ، أو أسلموا على يد الصحابة ، كان إسلامهم أقوى وأنقى ممن تأخر عن ذلك ، بسبب روحانيتهم ونورانية إيمانهم الفائقة رضي الله عنهم .

د- عدالة الصحابة :

هناك مصادر متعددة تكاملت في تعديل طبقة الصحابة وهي القرآن الكريم والحديث النبوي وإجماع العلماء ورجحان العقل .

١- القرآن الكريم :

من الطبيعي أن يعدلهم القرآن ، لأنهم حملة الوحي ، ونفى عنهم كل شك وغلط وغمز ، وسماهم عدول الأمة ، جاء في محكم تنزيله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وهذا الكلام يدل على الوسطية ، والآية عامة لكنها موجهة مباشرة إلى الصحابة ، فهم أول من يدخل فيها ، فكانوا عدول الأمة ، وأئمة الهدى وحجج الدين ، ونقله الكتاب والسنة .

ونذب عز وجل إلى التمسك بهديهم ، والجري على منهاجهم القويم الأحق بالافتداء في سائر العصور ، فقال : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء : ١١٥] .

وجاء في القرآن الكريم : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، هكذا مزجت بهم الخيرية ، إذ عبّر عنها بصيغة الماضي لحتمية الأمر واختصاصه بهم ، وقد اختصهم المولى بخصيصة ليست لأي طبقة ،

فجميعهم وفق منطوق القرآن عدول بشكل مجمل ، إذن فعدالة الجمع أقوى من عدالة الأفراد ، لأنها عدالة مستندة إلى القرآن الكريم .

قال عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَلْبَسُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ سَطَعُهُمْ فَنَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وهذا في عموم الصحابة .

وقال الإمام مالك رضي الله عنه : « من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية » (١)

لكن ورد في خصوص منهم مثل المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وقال عز وجل في الثناء على أهل بيعة الرضوان : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] وكان عددهم قريباً من ألف وخمسمئة .

وخص المهاجرين بقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩٨] .

(١) الكفاية ، ص/٤٩ .

وتبعاً لهذه الآية الكريمة قال الإمام ابن حزم الأندلسي : « لا يقطع بالجنة لمن بعدهم مثل من أسلم يوم فتح مكة الذين فيهم مؤلفة القلوب » والأصح ألا يذكر الصحابة إلا بالخير فالنص القرآني الذي أثبت عدالتهم على العموم يوجب تكفير من طعن فيهم .

٢- السنة النبوية :

وهي نصوص كثيرة مبثوثة في كتب الحديث الصحيحة ، مثل : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذونهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه . »

وهذا تحذير على سبيل التبليغ لا التكليف ، أي يبلغه الصحابة لمن بعدهم .

وفي مسند البزار ما يفيد بأن الصحابة من بعد الأنبياء عليهم السلام في شرف الرتبة ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين » .

كما جاء قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » ، والمدّ : رطل وثلاث عند أهل الحجاز ، والنصيف : نصف الشيء

وقال : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » والملحوظ أنه جعل كل الإيمان في حبهم ، ولم يقل من الإيمان أو من النفاق .

وهناك حديث متواتر رواه عدد غفير من الصحابة كما يقول الحافظ ابن حجر في الإصابة ، وهو « خير القرون قرني هذا ، ثم الذين يلونهم ، ثم

الذين يلونهم « أي المقصود الصحابة ثم التابعون ، ثم أتباع التابعين .

ويجيب الدكتور محمد السماحي رحمه الله على سؤال إن كان المقصود شاملاً مسلمي ما قبل الفتح ، فيقول : « وأما مسلمة الفتح والأعراب الوافدون على رسول الله ﷺ ، فهؤلاء لم يتحملوا من السنة مثل ما تحمل الصحابة الملازمون لرسول الله ﷺ ، ومن تعرّض منهم للرواية كحكيم بن حزام وعتاب وغيرهم ، عرفوا بالصدق والديانة وغاية الأمانة ، على أنه ورد ما يجعلهم أفضل ممن سواهم من القرون بعدهم »
وخصص النبي عليه الصلاة والسلام أبطال غزوة تبوك بالإطراء .
قال : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » وفي رواية : « فقد وجبت لكم الجنة » .

وظاهرهم العدالة ، ولا يقوم بالجرح والتعديل إلا جهابذة ، وليس هؤلاء إلا من التابعين الذين خالطوا الصحابة وعرفوا أخلاقهم وإخلاصهم ، وتشبعوا بأخلاقهم ، فلم يبق من مجرّحين للصحابة إلا المغرضون غير الموضوعيين الذين يرون بعين الحقد ما هو منقبة منقصة ومثلية ، وليس كل ذنب وهفوة مسقط للعدالة .

كذلك نص عمر رضي الله عنه على أفضلية الصحابة وعدالتهم إلا من أظهر ما يسقط العدالة ، إذ قال : « إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ ، وإن الوحي قد انقطع ، وإني آخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ، ولم نصدقه ، وإن قال : إن سريرتي حسنة » وكأنه يقدمهم على طبقة التابعين الذين خالطوهم .

وقد جيء بشاعر بدوي هجا الأنصار إلى عمر رضي الله عنه ، فقال :

« لولا أن له صحبة من رسول الله ﷺ - ما أدري ما نال فيها - لكفيتكموه ، ولكن له صحبة منه »^(١) مع ما يعرف كل الناس من صرامته رضي الله عنه لم يعاقب من حظي بالصحبة .

٣- الإجماع :

بعد تعديل القرآن الكريم والحديث النبوي لطبقة الصحابة المباركة ، ثم الإطباق على تحريم الطعن فيهم ، وهكذا أجمعت الأمة على عدالتهم .

قال ابن الصلاح في كتابه : « ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة ، ومن لابس الفتن منهم ، فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتد بهم في الإجماع ، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر ، وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نَقَلَة الشريعة »^(٢) .

وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ينصح بمنهجهم والتأسي بهم يقول : « من كان مستنأ فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة »^(٣) .

ويذكر الناس كثيراً مقولة الشافعي في الاجتهاد : هم رجال ونحن رجال ، مما يشكك غيرهم بأن الشافعي لا يوقر أحداً ، وأن كل كلامه اجتهاد لا اتباع ، لكنه أردف قائلاً : « وهم فوقنا في كل علم واجتهاد

(١) الإصابة : ١١٠/١ .

(٢) ؟؟؟ .

(٣) حلية الأولياء : ٣٠٥/١ ، والمواقفات : ٧٤/٤ .

وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، آراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا » .

والذين اشتركوا في الفتنة منذ مقتل عثمان رضي الله عنه ، لم يصدر عنهم ما يخلّ بعدالتهم ، فكان القتال الذي شجر بينهم من جراء اجتهادات مختلفة متباينة وهي لم تمسّ نقل الشريعة ، وقد أثبت علماء الحديث أن جماعة معاوية رضي الله عنه لم يضعوا حديثاً واحداً في ذم أعدائه أو في بيان فضله .

فإن سبّ أحد الصحابة أو واحداً منهم ، فإن نسب إليهم ما لا يقدر في عدالتهم أو دينهم ، بأن يصف بعضهم بالبخل أو الجبن ، أو قلة العلم ، أو عدم الزهد ، ونحو ذلك فلا يكفّر باتفاق الفقهاء ، لكن يستحق التأديب .

أما إن رماهم بما يقدر في دينهم أو عدالتهم ، كقذفهم فقد اتفق الفقهاء على تكفير من قذف الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها ، بما برّأها الله عز وجل منه وهو الزنا ، لأن القاذح حينذاك مكذب لنص القرآن كما جاء في سورة النور .

ويمكن أن يضاف هنا قذف أي صحابي بالتلاعب بنص القرآن والحديث ، لأن هذا تكذيب للشريعة .

واختلف الفقهاء في تكفير من سب بقية الصحابة ، فذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يكفّر من سبّ أحداً من الصحابة ولو عائشة رضي الله عنها بغير ما برّأها الله منه ، في حين قالوا بتكفير من كفر جميع الصحابة ، أو القول بأن الصحابة جميعاً ارتدوا عن الإسلام بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكنت أظن أن هذا بحث نظري لم يجز في الواقع حتى سمعت بعض المارقين يقول بالردة الجماعية !

قال أبو زرعة الرازي أحد أفضاذا النقد في رجال الحديث : « إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابةُ وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبتلوا الكتاب والسنة ، والجرح أولى بهم ، وهم زنادقة »^(١) .

٤- العقل :

هؤلاء الميامين الأطايب قدموا المال والمهج في سبيل نصره الدين ، وغُربوا عن وطنهم ، وقاسوا المشقات الهائلة ، ولم تعرف الأمم مخلصين مربيين أبطالاً علماء مثلهم ، فلا يقول العقل بعد شهادة التاريخ بأنه يشك بهم ، ويمكن إخضاعهم للجرح .

وما قدمه الصحابة من تضحيات عظيمة كان دروساً وعبراً تطلع إليها المجاهدون ، وأفادوا منها في سبيل نصره الدين ، في ملاقاته العدو ، وفي محاربة النفس ، إذ ضرب الصحابة المثل الأعلى في المحاربة الداخلية والخارجية ؛ قتال النفس والعدو ، فلا يقول العقل بوجود أي ريبة فيهم .

ونذكر بصدد تضحياتهم وبطولاتهم العجيبة كما في كتب السيرة والفتوحات ، أن كسرى بلاد فارس ، طلب عون ملك الصين في إثر معركة القادسية ، فردّ عليه ملك الصين : « لا قبل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها » .

كذلك يكفر من فسق الصحابة لأن هذا كسابقه موجب للكفر إذ هو

(١) الكفاية ، ص/٩٧ ، والإصابة : ١/١١ وراجع عدالتهم ، السنة المطهرة ، د . نور الدين عتر ، ص/٣١ ، والموسوعة الفقهية : ٢٦/٣١٥ .

تكذيب لما نص عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم ، ولا خلاف بعدما سبق في تحريم من سب الصحابة جميعاً أو واحداً منهم ، ونقل الإمام المحدث الفقيه علي القاري في شرح نخبه الفكر الإجماع على ذلك إذ قال : « من سب أحداً من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع » .

وفي رأينا ليس يقتصر السب على اللعن أو إنكار دينهم ، بل إن نسبة ما يشين أخلاقهم يعد سباً كأن يقال : أبو بكر ظالم ، وخالد غدار ، وحسان نمام وجبان ، بل إن الإمام مالكا رضي الله عنه استدل على أن من سب الصحابة لا حظ له في الفيء ، والفيء : ما أخذ من مال الكفار الأعداء بغير قتال .

وكان قد استدل على هذا من آيات مدح الأنصار والمهاجرين ، فقال عز وجل بعد مدحهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر : 10] ، وكأن سبهم ينتزع الإسلام في رأي الإمام فلا يستحقون عطايا الإسلام لما قالوا بعكس ما دلت الآية .

هـ- أباطيل وردود :

بقي التنبيه على أن العدالة في الشرع مَلَكة تحمل صاحبها على التقوى واجتناب ما يخل بالمروءة ، ويشترط فيها خمسة شروط هي : الإسلام والعقل والبلوغ والتقوى والمروءة ، وتستدعي التقوى فعل المأمورات واجتناب المنهيات ، في حين تستدعي المروءة مراعاة العُرف الاجتماعي الصحيح الذي لا يخالف شرع الإسلام وتنضوي في عنوان الآداب العامة .

وفحوى العدالة أن يغلب الخير على الشر ، وهذا ممكن في الإنسان ،
وليست تعني العصمة التي تقترب بالخواص من الأنبياء ، فهي مثالية راقية
محوطة بالوحي ، فالعدل قد يقع في معصية ، فهذا الوقوع إذن احتمالي
غير ممنوع ، وإن لم تقع المعصية من كثير من الصحابة ، وقد تكون
المعصية كبيرة ، وقد تعد هفوة بقراءة القرائن ، والعبارة بالخواتيم :
« إنما العبرة بالخواتيم » والعدل يتوب ويرجع عن الكبيرة ، ولا يصّر
عليها كما في شروط التوبة عند الفقهاء ، حيث عدم الإصرار بالإقلاع ،
وعدم رجوع ، وندم .

فمعاقرة الخمرة كبيرة ، وقد وقعت لأحد الصحابة البدرين من
أشراف الصحابة وهو عثمان بن مظعون ، كان والياً على الكوفة فعُزل
وجُلد ، وجلده الفاروق عمر رضي الله عنهما ، ونقول : السكر ظلم
للنفس ليس فيه كره للمسلمين يحوج إلى التلاعب بالرواية لتشويه
الإسلام .

وثمة رجل آخر اعترض على عدالته وهو الوليد بن عقبة بن
أبي مُعَيْط ، وشنعوا به وذلك لنفي إطلاق العدالة على الصحابة ، بل
ينبغي أن يؤكد ما سبق من قولنا : النقيصة الذاتية لا تنفي كل الدين
ولا تقتضي عداء للإسلام ، فلم يرو حديثاً واحداً في أخيه وولي نعمته
عثمان بن عفان أخيه لأمه ، ولا في فضل نفسه حتى يرفع عنه ما لحقه من
الشهرة بشرب الخمر ، وكان قائداً في فتح أذربيجان .

اللهم إلا حديثاً واحداً لم يصح سنده عند المحدثين أخرجه أحمد
وأبو داود عن طريق رجل مجهول ، يدعى أبا موسى الهمداني ، قال
الوليد : « لما فتح النبي ﷺ مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيمسح
على رؤوسهم ويدعو لهم - كما كانت سنة في المدينة من التبرك على

الوليد وتحنيكه - فجيء بي وأنا مطيب بالخلوق ، فلم يمسخ ، ولم يمنعه من ذلك إلا أن أمي خلقتني بالخلوق فلم يمسنني من أجل الخلق » .

ويلحظ شيثان في هذه الرواية الضعيفة :

الأول : أنه لم ينسب إلى نفسه شرف المسح وهذه دلالة على صدقه .

الثاني : أنه صبي صغير لا تكون له الصحبة عند الأصوليين إذ لم يجالسه كثيراً .

وبعد فالرواية باطلة ، فقد ثبت أنه أراد منع أخته من الهجرة السنة السابعة للهجرة ، وأنه قبل هذا افتدى ابن عمه الأسير بشيء من المال ، فقد كان رجلاً لا صبياً يوم الفتح .

وإذا قلنا : إن شرب الخمر ظلم وما حدث من المرأة المخزومية التي سرقت مظالم ، فيكون الجواب أنها تابت بعد إقامة الحد عليها وصلحت ، بل إنها صارت صديقة تتودد لأهل البيت من فاطمة وعائشة وسائر الأزواج رضي الله عنهن .

أما من تلبس في الفتنة وصنع ما صنع نتيجة اجتهاد بعد اختلاط الأمور بدسيسة من المنافقين ، ولا شك أن لليهود يداً في هذا ، فقد توالى محاولاتهم التخريبية ، فما قصرُوا في محاولة تقويض الدولة الإسلامية منذ أول عهدهما إلى يومنا هذا .

والمحاربون من الطرفين مؤمنون ، فقد قال عليه الصلاة والسلام في ريحانته حفيده الحسن بن علي : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين » .

وقد وقع هذا مصداقاً للحديث لدى نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه بعد وفاة الخليفة الرابع علي رضي الله عنه ، وهكذا

اجتمعت كلمة المسلمين على معاوية فسمي عام الجماعة وذلك سنة ٤٠هـ ، فالنبي عليه الصلاة والسلام سمى الطرفين مسلمين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] وهذا يعني أن القتال لا ينفي الإيمان ، وذكر بعضهم أنه لم يكن في الفريقين مئة من الصحابة وجميعهم صحابة فهم عدول^(١) .

ونظن أن العدد أكبر ، إذ لا نخجل من اقتتالهم للاجتهاد ، فهم لم يستحلوا فعل القتل إنما كان اضطراراً ، ولا يقعون في حكم الحديث النبوي : « القاتل والمقتول في النار » لأنهم لا يكفرون من يقاتلون ، ولأنهم لا يستحلون القتل ، والذين يطعنون فيهم لهذا القتال يطعنون فيمن ينتصرون لهم .

وجاء في تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري أن بعض المنافقين كانوا يتراسلون بأكاذيب على حكم عثمان ، حتى ظن أهل كل مدينة أن الظلم عظيم في غير مدينته ، ثم اجتمع هؤلاء الكفرة في المدينة بعد أن ذهب معظم الصحابة إلى الحج وألبوا الناس على عثمان حتى قتل شهيداً رضي الله عنه ، ولعل من هذه الوجهة أن عمر رضي الله عنه كان يمنع خروج الصحابة من المدينة لأي واحد منهم إلا بإذن منه .

ثم اندسَّ المنافقون والقتلة في صفوف عليّ ، حتى يُعد علي مستتراً على قتلة خليفة ، فسقط خلافته ، ولهذا تحيّر الصحابة فبعضهم مع علي وبعضهم مع معاوية وبعضهم اعتزل الفريقين ، ومن مظاهر الالتباس أن عقيل بن أبي طالب كان في صف معاوية عليّ أخيه علي .

وقد طوّل الإمام علي رضي الله عنه بالقتلة وكان البحث عنهم مربكاً لوحدة المسلمين المقاتلين ففي هؤلاء المطلوبين القاتل والذي حماه

(١) الباعث الحثيث ، ص/٢٢٠ .

والمحاصر لبيت عثمان رضي الله عنه ، وهذا يحتاج إلى محاكمات داخل الجيش مما يسبب تشتتاً .

أما معركة الجمل فلم تذهب عائشة مقاتلة علياً رضي الله عنهما كما يصور بعض المؤرخين اليوم ، بل ذهبت مناقشة بقصد الإصلاح بين علي والطالبين الذين قدموها لحرمتها ، والدليل على قصدية الإصلاح أن المعركة لم تحدث مباشرة بل حدث صلح في بداية الأمر ، لكن المنافقين قالوا بعد الاتفاق : إن اصطلاح هؤلاء فعلى دمائنا ، فاتفقوا على أن ينشبوا القتال فتركوا صفوف علي ورموا الطرف الآخر بالسهام .

وبذلك أوقعوا الشك في صفوف عائشة بأن علياً نقض العهد ، ولما عرف بعض الصحابة هذه الحيلة رجعوا فقتلوا غيلة حتى لا يفتضح الأمر ، ومن هؤلاء الذين رجعوا وقتلوا طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما .

أما الاختلافات السياسية فلم تؤثر بالرواية ، فمرويات مخالفي علي لا يوجد فيها شيء يخالف غيرهم من الصحابة ، ولا ما يقوي موقفهم في خلافهم مع علي ، وهذا واضح في مراجعة مرويات معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم ، وكذلك لم يرو أصحاب علي شيئاً في ذم أحد من جماعة معاوية .

ويذكر المؤرخون أن ملك الروم في القسطنطينية أرسل إلى معاوية يعرض عليه خدماته بإرسال جيش كبير لمساعدته في مقاتلته ، فأرسل إليه مباشرة : « من معاوية إلى كلب الروم لأن أكون جندياً في جيش ابن عمي أحب إلي من جيشك » .

واعترض بعض الناس بخساسة منهم ادعوها في بعض الصحابة ، ورأوا أنها تخل بالعدالة ، منها شأن أبي هريرة رضي الله عنه الذي روي

في صحيح مسلم : « كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني » .

فوجدوا أنه جشع أكل غير خالص النية ، ونحن نظن أن هذه الخدمة كانت تطوعاً غير مطلوبة من النبي عليه الصلاة والسلام فهي غير مشروطة بالرواية ، ونرى أيضاً أنه لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام ليترك هذا الغريب الفقير غير العامل من غير إطعام ، سواء اهتم بالرواية أو لم يهتم بها .

يقول الدكتور مصطفى السباعي : « وليس هو من الخدمة لأجر ، ولو فرضنا أنه صحب النبي عليه الصلاة والسلام وخدمه مقابل أجر لم يضره ذلك بدليل إقرار النبي ﷺ ، ولو كان مكروهاً أو محظوراً لما رضي به ، وقد أجمعت الأمة على أن وقف الأوقاف لطلاب العلم بأي نوع منه مشروع لكي يكفوا مشغلة كسب العيش » .

أما كونه كثير الدعاية فهذه رحمة ، إذ كان يمزح مع الكبار والصغار ، حتى كان لطيفاً جداً مع الحيوانات ، ومنه تشرف بهذا اللقب ، وليس من المستساغ اليوم أن يظل الداعية جاداً عابساً لا يروح على المدعويين ، وأنصح هنا بالتوسع في كتب كرتت الجهود فيها للدفاع عن هذا الصحابي رواية الإسلام مثل « أبو هريرة في الميزان » .

و- كتب تراجم الصحابة :

نجد أخبار هؤلاء الميامين وتفاصيل أيامهم في كثير من الكتب ، ولكن نتشرف بتراجمهم في كتب قصرت عليهم ، نذكر منها :

١- الاستيعاب في أسماء الأصحاب للمحدث يوسف بن عبد البر (٤٦٣هـ) رتبته على حروف المعجم ، وهو مطبوع على حاشية الإصابة لابن حجر ، وقد اشتمل على ٤٢٢٥ أربعة آلاف ومئتين وخمسة وعشرين

ترجمة وليست ثلاثة آلاف كما أقر الدكتور أبو شهبه رحمه الله^(١) ، ويؤخذ عليه الإسهاب فيما شجر بين الصحابة ، وحكاياته عن الإخباريين لا عن المحدثين^(٢) ، لذلك غلب على نقله أحياناً كثير من التخليط ، وسمي كذلك لظنه أنه استوعب ما قبله ، وقد فاته الكثير .

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير المحدث المبارك بن محمد (٦٣٠هـ) وجمع فيه ٧٥٥٤ سبعة آلاف وخمسمئة وأربعة وخمسين صحابياً ، وقد أدخل في كتابه من ليس صحابياً على سبيل الوهم ممن نقل عنهم ، وإلى جانب هذا أغفل كثيراً ممن هم صحابة .

٣- تجريد أسماء الصحابة للإمام شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد (٧٤٨هـ) طبع بالهند في جزأين .

٤- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) وقد اشتمل على تسعة عشر ألفاً وأربعمئة وسبعة وسبعين اسماً ، وألفاً ومئتين وثمان وستين كنية ، وألف وخمسمئة واثنين وخمسين صحابية ، جعل القسم الأخير منه للكنى والنساء ، وهو مطبوع في خمسة أجزاء وله فهرس جيدة ، عني فيه ابن حجر بتمييز من ثبت لقاؤه ومن لم يثبت لقاؤه بالنبي عليه الصلاة والسلام .

٥- الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، يحيى بن بكر العامري (٨٩٣هـ) في مجلد واحد لصحابة صحيحي البخاري ومسلم ، رتبته على حروف المعجم ، ثم انتهى بأسماء الصحابييات ، وكان يذكر عدد ما روي للصحابي في الصحيحين ، وما اتفقا عليه ، وما انفرد به كل منهما ، ومن شارك البخاري ومسلماً أو

(١) علوم الحديث ابن الصلاح ص/ ٢٩٢ .

(٢) الوسيط ص/ ٥٣٩ .

أحدهما في التخريج عنه من أصحاب السنن الأربعة .

٦- حياة الصحابة للمحدث الهندي محمد بن يوسف الكاندهلوي (١٣٨٣هـ) اختار فيه مجموعة من الصحابة الكبار المشهورين ، ورتب أخبارهم على الأبواب مثل « باب تحمل الشدائد في الله » ، « باب الهجرة » يطبع كثيراً هذه الأيام ، وهو مفيد .

وانتشر في عصرنا « رجال حول الرسول » للدكتور خالد محمد خالد ، ضمنه ترجمة ستين من الصحابة جاءت في شكل قصصي مشوق ، وقد تبعه ولده الأستاذ عمرو خالد بدروس وافية على التلفاز حول أخبار ومواقف مهمة للصحابة سجلت على دسكات ، وهناك كتاب « نساء حول الرسول » و« أطفال حول الرسول » ، و« صورة من حياة الصحابة » و« نجوم حول الرسول » .

أما عدد الصحابة فغير محصور ، لكنه يقدر تقديراً ، فقد ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة بعشرة آلاف من المسلمين ، وحج معه حجة الوداع أربعون ألفاً .

وذكر أن أبا زرعة الرازي سئل : أليس يقال حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث ؟ قال : ومن قال ذا ، قلّل الله أنيابه هذا قول الزنادقة ، ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ : « قبض رسول الله ﷺ عن مئة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ، ممن روى عنه ، وسمع منه ، فمنهم من شهد معه غزوة تبوك تسعون ألفاً ، ومنهم من شهد معه حجة الوداع أربعون ألفاً »^(١) .

والصحابة مكثرون ومقلون ، لأن كثيراً منهم متحملون ، وبعضهم لم يتسن له السماع فبعضهم روى أحاديث معدودة ، وثمة صحابي لم يرو إلا

(١) علوم الحديث ص/٢٩٨ ، وجواهر الأصول ص/١٣٣ .

حديثاً واحداً وهو أبي بن عمارة المدني ، له حديث في سنن أبي داود :
١٠٩/١ وابن ماجه : ١٨١/١ في مسح الخفين ولم ينفرد به لأن الحديث
متواتر بالمعنى .

وأشهر رواية الصحابة :

١- أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي (٥٩هـ) روى ٥٣٧٤
حديثاً .

٢- عبد الله بن عمر بن الخطاب (٧٣هـ) روى ٢٦٣٠ حديثاً .

٣- أنس بن مالك (٩٣هـ) روى ٢٢٨٦ حديثاً .

٤- عائشة أم المؤمنين (٥٨هـ) روت ٢٢١٠ أحاديث .

٥- عبد الله بن عباس (٦٨هـ) روى ١٦٦٠ حديثاً .

٦- جابر بن عبد الله (٧٨هـ) روى ١٥٤٠ حديثاً .

٧- أبو سعيد الخدري سعد بن مالك (٧٤هـ) روى ١١٧٠ حديثاً .

٨- عبد الله بن مسعود (٣٢هـ) روى ٨٤٨ حديثاً .

٩- عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٥هـ) روى ٧٠٠ حديث .

ويلحظ أن آخر الصحابة موتاً أبا الطفيل عامر بن وائلة (١١٠هـ)
ليس له كثير رواية ، وأنس بن مالك الذي عاش ثمانين سنة بعد النبي عليه
الصلاة والسلام روى (٢٢٨٦) حديثاً فقط ، مع كثرة سنوات صحبته
بالنسبة لراوية الإسلام الأول أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين .

إذن كانت لهم مواهب مختلفة ، وظروف مختلفة ، فكان عبد الله بن
عباس أكثر الصحابة فتياً أوسطهم رواية .

وقال الإمام الشعبي : « كان العلم يؤخذ عن ستة من أصحاب
رسول الله ﷺ ، وكان عمر وعبد الله وزيد ، يشبه علم بعضهم بعضاً ،

وكان يقتبس بعضهم من بعض ، وكان علي والأشعري وأبي ، يشبه علم بعضهم بعضاً ، وكان يقتبس بعضهم من بعض»^(١) .

وليس منقصة أن يتشرف بالفتيا بعض من الصحابة ، فلا نخجل كما صنع أحد المعاصرين من قول ابن خلدون (٨٠٨هـ) : « إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان يؤخذ عن جميعهم ، وإن كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه وكانوا يسمون لذلك (القراء) أي الذي يقرؤون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ ، وبقي الأمر كذلك صدر الملة»^(٢) .

فالفقوى ينبغي أن تستنير بالنصوص ، والعلم بالنصوص لا يكون على مستوى واحد في كل عصر وفي كل فئة ، فهذا رزق وموهبة ودربة ، لكن الصحابة جميعاً كانوا قراء ، خصوصاً أن الأمية تضاءلت مع سنوات البعثة النبوية .

ونذكر بأن ثمة عوامل ساعدت في حفظ الصحابة للسنة ، منها قوة قرائحهم وصفاء أذهانهم ، وقوة الدافع الديني وشعورهم بمكانة الحديث النبوي ، وحضه عليه الصلاة والسلام على الالتزام بالسنة وفهم الكلام ونقله واتباعه وسائل تربوية تعليمية ، وعدم سرده المتواصل ، وعدم التطويل ، فمعظم الأحاديث أسطر قليلة ، بالإضافة إلى الأسلوب البياني الرائع للحديث ، وكانوا من عشاق الكلمة الجميلة ، ويضاف إلى هذا استحواذهم على قدر كبير من الحديث المكتوب منذ أيام البعثة النبوية .

* * *

(١) علوم الحديث ابن الصلاح ٢٩٧/٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص/٤٤٦ ، وراجع أضواء على السنة ، ص/٦٨ للمُظلم أبي رية .